

"مراجعة في كتاب التعددية والنهضة والتنوير"

للسيد محمد حسن الأمين

الياس خوري

بدأ لقائي بالسيد محمد حسن الأمين من قبل أن ألتقي به شخصياً، فالذين التقوا في درب فلسطين لا يفترقون، لأن ما يوحدهم هو الإنسان، والإنسان بحسب تعبير السيد في كتابه: "الاجتماع العربي الإسلامي مراجعات في التعددية والنهضة والتنوير"، هو المقدس، أما الدين فإن قدسيته تأتي من كونه منزلاً لتكريس قدسية الكائن البشري.

لقائي بهاليوم، في هذا المحفل الكريم، هو حول كتاب أثار في عقلي الكثير من الأسئلة، لكن أكد لي أن الاتفاق والاختلاف لهما مرجع واحد هو العقل، الذي حين نحتمكم إليه يعطينا القدرة على أن نبني الثقافة بوصفها مقاربة، مثلما علمنا الأقدمون، والمقاربة هي تداول، الصفة والمعرفة، وشرطها الاعتراف بأن الحقيقة مسار، طريقنا إليه له اسم واحد هو الحرية.

ذكرني هذا الكتاب بأمهات الكتب النهضوية، وقد عبر به من جمال الدين الأفغاني إلى شكيب إرسلان إلى الكواكب، وهم يحملون الأسئلة ويدعون إلى العودة الوثني، لكنني وإن كنت آتياً من موقع علماني فأنا لا

أبحث عن المختلف بل عما يوحّدنا اليوم، ونحن نرى كيف قادتنا أنظمة الاستبداد إلى مهانة العودة إلى الأمن الاستعماري حيث تستباح أرض العرب ويشعر أبناء هذه البلاد بأنهم مهدورون في كرامتهم وحقهم في الحياة.

كتاب السيد بحث في التوир والنور، والكلمة تضيء، والعقل يكشف ويكتشف، والحوار هو الطريق إلى بناء أفق مقاوم في زمن الانحطاط الذي يحاصرنا.

لفتني في الكتاب ثلاث مسائل:

١. المسألة الأولى: هي مفهومه الذي يعيد فيه الاعتبار إلى العقل، فالعقل يتقدم على الدين، "الدين لا يُعرف إلا بالعقل، ولكن العقل لا يعرف بواسطة الدين، هذه النظرة إلى العقل تحرر النص وتجعله قادرًا على فتح حوار حقيقي مع الجميع. حوار يؤتى إليه بتواضع العلماء، وفي الحوار يستطيع الإسلام أن ينفتح على العلماني، ويجد الاثنان أرضًا واحدة للقاء، من أجل استعادة النور النهضوي، الذي عتم عليه الاستبداد وابتذله الخرافية. فالعودة إلى العقل، ووضع الموروث الإسلامي كله في حلبة الحوار واعتباره تراثًا لجميع أبناء هذه البلاد مهما اختلفت بهم العقائد الدينية والمذاهب الفكرية، هي الخطوة الأولى من أجل أن تستعيد الثقافة العربية حقها في التعدد والاختلاف، بحيث يسقط التحرير ويستعيد مثقفوه ونهضويوه مثل نصر حامد أبو زيد حقهم في الحرية والتفكير والإبداع.

٢. المسألة الثانية: هي تحديده للإنسان في وضعه محكمًا بالحرية، والحرية هي قدر الإنسان ومؤسساته، نحن هنا أمام رؤية لعلاقة الإنسان بالحرية، فالإنسان لا يكون إلا بحريته، وهذا يعني إدانة واضحة لكل أشكال الإكراه ومسوغاته. الحرية في غاية الحرية، وليس في مبدئها. اللقاء في المبدأ والخلاف في الفایة، ليس قطعية، بل فتحاً لأبواب الحوار، وهذا ما ينقصنا اليوم في العالمين العربي والإسلامي حيث أرصدت الأبواب في وجوه الناس، وانزوى كل فريق على قناعاته وترك الفكر وحيداً في متاهة العرب بحداثتهم.

٣. المسألة الثالثة: هي تمييزه بين الشريعة والسلطة، الشريعة شأن الهي أما السلطة فشأن بشري، ولا فرق بين سطولة التفسير والفهم المُعْبر عنها بالفقه، وبين سلطة الإدارة والحكم، فإن كلها شأن بشري:

هذا التمييز أساسي في بناء الحوار، وهو جزء مكمل للمسؤلتين السابقتين: العقل والحرية، هنا نصل إلى وصل ما انقطع في تراثنا الفكري الحديث، صحيح أن السيد الأمين يوجه نقداً موارباً إلى علي عبد الرزاق في كتابه: "الإسلام وأصول الحكم"، لكنه يستعيد المسألة بجرأة ، فاتحاً الباب أمام إزالة المسافة. وبين الإسلام وهو باب جديد يستحق أن يقرأ بعناية أنه يفتح طريق الحوار ويسمح لأفق سياسي ديمقراطي بالتبloc.

أما ما في هذا الكتاب فهو قدرته على تجاوز الخوف ورفضه مقولة رد الفعل، فهو يحتمني بالإسلام في مواجهة ثقافة يحملها الغزاة، ولا يرد كل الدعوات الإستشرافية التي جعلت من العرب والمسلمين هدفاً لهجماتها، بل ينطلق من واقعه اللبناني والعربي الإسلامي، مطهوراً الفكر، داعياً إلى مبني ثقافي جديد قوامه التعددية والتولير.

مصطلح التوير النهضوي، يعاد تفسيره في سياق جديد، ويصير جزءاً من رؤية فكرية، تبحث في الواقع الثقافي، وتقترح له مقاربات جديدة، من أجل وضع الفكر في خدمة التجربة الإنسانية ومحاولة البحث عن حلول لمشكلات المجتمعات العربية والاسلامية.

ما ان يصل السيد الأمين إلى توصيفه للديمقراطية، فإنه يتبع لي ان أسجل كيف يجتمع اتفاقي واختلافي معه.

فانا أتفق معه في توصيفه للديمقراطية كضرورة في مواجهة الاستبداد، لكنني اختلف معه في مسألتين:

الأولى: اعتباره الديمقراطية مجرد آلية.

والثانية: اعتباره أن قيام مؤسسة الشورى في النظام الإسلامي، يجعل موضوع الأخذ بالديمقراطية أمراً لا معنى له، بل أمراً يندرج في سياق الانحراف عن قواعد النظام الإسلامي نفسه.

في المسألة الأولى، فالديمقراطية هي محصلة تاريخية، وليس مجرد آلة. إنها نتاج التوير الذي يدعونا إليه كتاب السيد نفسه، وهي لا تقوم بوصفها خياراً حرّاً لشكل الحكم ومفهوم تداول السلطة، نافية عن آلية الدولة أي قداسة.

أما في المسألة الثانية فالمشكلة تكمن في تحديد النظام الإسلامي وتحديد

الشوري، والتحديات غابت عن الكتاب، بل أخشى من وجود تناقض بين هذا الطرح، وبين مقوله أساسية في الكتاب: " فمن وجهة نظرنا فإن الإشكالية بين الإسلام والعلمنة في جانب كبير منها هي مشكلة مفتعلة، فلا الإسلام استبدل بسلطة الحق الإلهي أي بسلطة المؤسسة الدينية على المجتمع، ولا العلمانية تنفي حق المجتمع باختيار الشريعة التي يرتضيها لتنظيم إدارة شؤونه واجتماعه وانتقل في خلافاته: ص ٧٦.

سؤال هو، اذا اختلفت الشوري عن الديقراطية، واذا كانت السلطة كالفقه شأنها بشرياً، فهذا منطقياً يؤدي إلى اعتبار النظام السياسي ومسائل الحكم والسلطة شؤوناً خاضعة للتغير وللقرار الحر للناس.

والمسألة تحتاج في رأيي إلى مبحث خاص بها لأنها تشكل اليوم السؤال الفكري والسياسي الأكثر إلحاحاً في العالمين العربي والإسلامي، فهذا العالمان يخضعان اليوم لتزويرين فكري وسياسي كبيرين:

التزوير الأول: هو ما تدعيه أنظمة الاستبداد من حرصها على الأصالة والولاء من أجل وضع المجتمع أمام خيار الحرب الأهلية، تدعي الإسلام وحماية الثقافة العلمانية في آن، وتهدد الواحد بالآخر كي تديم سيطرتها وتؤيد حكمها.

التزوير الثاني: يتمثل في الخطاب الاستعماري الجديد الذي يدعي أن حروبها واحتلاله هما من أجل نشر الديمقراطية، بينما يسعى إلى الهيمنة ونهب الثروات، وإخضاع المشرق العربي، وتحطيم المقاومة الأخيرة في فلسطين المحتلة . لا الاستبداد سيحامي الأصالة ولا الجيوش المحتلة تحب الحرية والديمقراطية، الإنسان العربي الذي يستعيد حريته ويتمسك بها، هو القادر وحده على أن يبني مجتمعاً متحرراً وحرراً وديمقراطيأً، وهذا هو التحدي الكبير الذي جاء كتاب السيد محمد حسن الأمين، كي يفتح أبوابه للنقاش والعمل.